﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾ [الذاريات: 56 - 58]

❁ مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

كـلُّ مـا عـدا العبادةَ في هذه الحياة الدُّنيا تضييع للزَّمان

ذكر الرّازيُّ أنَّ تعلُّق الآية الأولى بما قبلها من وجوه: "**أحدها:** أنَّه تعالى لمّا قال: ﴿وَذَكِّرْ﴾، يعني: أقصى غايةِ التَّذكير، وهو أنَّ الخلق ليس إلّا للعبادة، فالمقصود من إيجاد الإنسان العبادةُ، فذكِّرهم به، وأعلِمهُم أنَّ كلَّ ما عداه تضييعٌ للزَّمان. **والثّاني**: أنَّ شُغْلَ الأنبياء منحصرٌ في أمرين: عبادةِ الله وهداية الخلق، فلمّا قال تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ﴾؛ بيَّن أنَّ الهداية قد تسقط عند اليأس وعدم المهتدي، وأمّا العبادة؛ فهي لازمة، والخلق المُطْلَق لها، وليس الخلق المطلق للهداية، فما أنت بملومٍ؛ إذا أتيت بالعبادة الَّتي هي أصلٌ؛ إذا تركت الهداية بعد بذل الجهد فيها. والثّالث: هو أنَّه لمّا بيَّن حال من قبله من التَّكذيب؛ ذكر هذه الآية ليُبَيِّن سوء صنيعهم؛ إذ تركوا عبادة الله، فما كان خَلْقُهم إلّا للعبادة"[1]، أي: "بعد أن نظَر حالَهم بحال الأمم، الَّتي صَمَّمت على التَّكذيب من قبلهم؛ أعقبه بذكر شنيع حالهم من الانحراف عمّا خُلقوا لأجله، وغرز فيهم، فقوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ خبرٌ مستعملٌ في التَّعريض بالمشركين الَّذين انحرفوا عن الفطرة، الَّتي خُلقوا عليها، فخالفوا سُنَّتها، اتِّباعًا لتضليل المُضِلّين"[2].

وقال الطَّيبيُّ: "لمّا نزلت: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾؛ حزِن رسول الله ﷺ؛

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 192، بتصرّف.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 25.

فأنزل الله: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، أي: لا تدَع التَّذكير والموعظة، فإنَّ الذِّكرى تنفع المؤمنين، وحُجَّةٌ على المعاندين، فإنَّك ما بُعِثْتَ إلَّا للدَّعوة، وما خُلِق الجنُّ والإنس إلّا لأن يُؤمروا بالعبادة؛ لأنَّهم مكلَّفون امتحانًا وابتلاءً"[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿رِّزْقٍ﴾: أصلُ (رزق) يدلُّ على عَطاءٍ لوقْتٍ، ثمَّ يُحْمَلُ عليه غيرُ الموْقوتِ[2]، فالرِّزْقُ: بالكسر اسم للمرزوق، والجمع: الأرزاق، مثل: حِمل وأحمال، ويُقال: ارتَزَق القوم؛ إذا أخذوا أرزاقهم، فهُم مرتزقة[3]، والرِّزْق المذكورُ في الكتابِ والآثارِ: ما مَنحَه الله من حَلالٍ أو حرام عند أهلِ السُّنَّة، وغيرُهم يخصُّه بالحَلالِ فقط، واللُّغةُ لا تَقتَضيه[4]، والمقصود بالرِّزْقِ هُنا: المالُ[5].

2) ﴿ٱلْقُوَّةِ﴾: أصلُ القوَّةِ: الشِّدَّةُ والصَّلابَةُ، يُقالُ: قَوِيَ يَقْوى قوَّةً، فَهوَ قَويٌّ، أي: اشتَدَّ، وصَلُبَ، والقوَّةُ أيضًا: المَتانَةُ، وضِدُّها: الضَّعْفُ والعَجْزُ[6]، والقوَّة كذلك: الطّاقةُ والقُدْرَةُ، تقولُ: لا قوَّةَ لي في قِتاله، أيْ: لا طاقةَ لي، والجَمعُ: قِوَى، وتارَةً تُستعمَلُ في البَدَنِ، وتارَةً في القَلْبِ، وتارَةً في النَّفْسِ، وتُطلَقُ أيضًا على سائرِ الكائناتِ، وتأتي القوَّةُ بمعنى: العَوْن، تقولُ: تَقَوَّيْتُ به؛ إذا استَعنتَ[7]، وذو القوَّةِ: صاحِبُ القُدْرَةِ، والقَويُّ: اسمٌ من أسماء الله الحسنى يدلُّ على أنَّه تعالى ذو قوَّة تامَّة، لا يدخلها عَجْزٌ في حالٍ من الأحوالِ[8].

3) ﴿ٱلْمَتِينُ﴾: أصلُ (متن) يدلُّ على صلابةٍ في الشَّيء مع امتدادٍ وطول، ومنه المَتن، وهو ما صلُب من الأرض، وارتفع، وانقادَ، والجمع: مِتان[9]، والمَتينُ في الآية معناه: الشَّديدُ، وهو هُنا وصْفٌ لِذي القوَّةِ، أي: الشَّديدُ القوَّةِ[10].

---

(1) الطيبي، فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب: 15/ 37.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رزق).
(3) الفيومي، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير: (رزق).
(4) القاضي عياض، مشارق الأنوار على صحاح الآثار: 1/ 571.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 28.
(6) الجوهري، الصحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة: (قوي).
(7) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (قوي).
(8) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 17/ 10.
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (متن).
(10) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 29، وعبد المحسن العباد، فتح القوي المتين، ص: 7.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

غـايـةُ خلـق الثَّقَلَيْنِ عِبادةُ الله تعالى مع غِنـاه سُبحانه عنها وعَنْهُم

يُبيِّنُ الله تعالى أنَّ الغايةَ الأولى مِن خَلْقه الثَّقلين: الجِنِّ والإنس، وإيجادِهما في الدُّنيا: أن يعبدوهُ على الاختيارِ بالمعنى الشَّرعيِّ للعبادة طاعةً، يعود عليهم لا عليهِ نَفْعُها، لا على الإجبار المحقَّق فيهم بالمعنى اللُّغويِّ للعبادة، فمَن أطاعهُ، وحقَّق غاية خلقه وإيجاده؛ فله التَّكريمُ والإسعاد في الدّار الباقية، ومَن عصاهُ، ورفَض تحقيقَ غايةِ خلقِه وإيجاده؛ فله الإهانة والإشقاء في دار البقاءِ.

وثمرةُ طاعَةِ كلِّ واحدٍ مِن الجنِّ والإنس، وثمرةُ عبادتِه إنَّما تعود عليه هو، ولا يعودُ على الله تعالى شيء منها، ولا يطلُبُ تعالى لأحدٍ مِن خلقه رِزقًا، ولا يُكلِّفه له طعامًا على وجه الخُصوص؛ ذلك لأنَّهُ سُبحانَهُ صاحبُ القوَّة المحيطة، البالغُ القدرة المطلقةِ على رزقهم جميعًا، فهو الغنيُّ بذاته عن خَلْقه جميعًا.

فإنَّ "شأنه تعالى مع عِباده ليس كشَأْنِ السّادة مع عَبيدِهم؛ لأنَّهم إنَّما يَملِكونهم؛ ليَسْتَعينوا بهم في تحصيلِ معاشِهم وأرزاقهم، أو للقيام على خِدْمَتِهم ورعايتهم، ففيها نَفْيُ أن يكونَ ملكُه إيّاهم لذلك، فكأنَّه ﷻ قال: ما أُريد أن أسْتَعين بهم، كما يَسْتَعين ملّاك العبيد بعبيدهم، وما أُريد منهم تحصيلَ رزق، فأنا الرّزّاق الغنيُّ عن العالمين، وما أُريد أن يُطْعِموني؛ فأنا أُطْعِمُ، ولا أُطْعَم، غنيٌّ عنهم وعن مُرافقتهم، فليَشْتَغِلوا بما يَنْفَعُهم، ويُسْعِدُهم وما خُلِقوا لأجله مِن عِبادَتي وطاعَتي والخُضوع لي"[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

معنى (الواو) في قوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ﴾:

(الواو) في قول الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ﴾ عاطفةٌ الجملةَ

(1) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 9/ 1110.

تـأكـيـدُ الأمـرِ بالتَّذكير وتقريرٌ لمَضمونِ تَعليلِه

بعدها على قوله: ﴿مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ﴾، "التي هي ناشئَةٌ عن قوله تعالى: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ۝٥٠ وَلَا تَجۡعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۖ﴾ [الذاريات: 50 - 51]، عَطْفَ الغرضِ على الغرض؛ لِوجود المناسبة"(1).

ويجوزُ أن تكون "استئنافًا مؤكِّدًا للأمر ﴿وَذَكِّرۡ﴾، مقرِّرًا لمضمون تعليلِه؛ فإنَّ كونَ خلْقهم مُغَيًّا بعبادته تعالى ممّا يدعوه ﷻ إلى تذكيرهم، ويوجِب عليهم التَّذكُّر والاتِّعاظ"(2).

معنى (ما) في قوله: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ﴾:

شأنُه تعالى مع عبيدِه لا يُقاس بـه شـأنُ عبيدِ الخَلْقِ معهم

(ما) في قوله: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾ نافية نفيًا حقيقيًّا، والغرض من هذا النَّفي بيانُ "أنَّ شأنه تعالى مع عبيده لا يُقاس به شأنُ عبيدِ الخلقِ معهم؛ فإنَّ عبيدَهم مطلوبون بالخِدْمة والتَّكسُّب لِلسّادة، وبواسطة مكاسب عبيدِهم قَدْرُ أرزاقهم، واللّه تعالى لا يَطلب من عبادِه رِزْقًا ولا إطْعامًا، وإنَّما يطلب منهم عبادتَه لا غير، وفَضْلًا عن كونِه لا يَطْلُب منهم، فهو الَّذي يرزقهم، وهذا المعنى الشَّريف هو الَّذي تجلّى تحت رايةِ هذه الآية، وله سيقَت، وبِه نَطَقَت"(3).

دلالةُ التَّعبيرِ بالفعلِ ﴿خَلَقۡتُ﴾ ماضيًا:

الخَلْقُ - بِمَعْنى إيـجـاد الـشَّيء مِـنَ الـعَـدَمِ - لا يـكـونُ إلّا لله تعالى

معنى الخَلْقِ في قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ﴾، يعني: الإيجادَ بالتَّقدير، والإبداع على الصّورة الَّتي قال تعالى فيها: ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ ۝٤﴾ [التين: 4]، وتدلُّ مفردة الخَلْق على دقَّة تقديرِ الموجَدِ ﷻ من العدم، ويُستعمل الخَلْقُ في إبداع الشَّيء من غيرِ أصل ولا احتذاء، وقد يُستَعْمَل الخلقُ في إيجاد الشَّيء من الشَّيء، كما قال تعالى: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ﴾ [النساء: 1]، وليس

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 24.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: 8/ 144، بتصرّف يسير.
(3) ابن المنيّر، حاشية الانتصاف على الكشاف: 4/ 406، بتصرّف.

الخلقُ بمعنى الإيجادِ مِن العدَمِ إلّا للّه تعالى، ولهذا قال تعالى في الفصل بينه وبين غيره: ﴿أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ﴾ [النحل: 17][1].

وفي التَّعبير بفعل الخَلْقِ ماضيًا دلالةٌ على تحقُّقِ خَلْقه سُبحانَهُ للعبادِ، وذلك يقتضي مِنهُم إفرادَهُ بالعبادَةِ؛ إذ الخالقُ الرّازقُ المدبِّر، هو المستحقُّ للعبادَةِ وحدَهُ دونَ سواهُ.

معنى (أل) في ﴿ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ﴾:

استِغْراقُ جميعِ أفـرادِ الـجِـنِّ والإنسِ

(أل) في ﴿ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ﴾ لتعريفِ الجِنْسِ المفيدةِ الاستغراقَ، فاللّه تعالى خَلَقَ الجنَّ والإنس كلَّهم، "والجنُّ: جنسٌ من المَخْلوقاتِ مُسْتَتِرٌ عَن أعْيُنِ النّاس، وهو جنسٌ شاملٌ للشَّياطين، قال تعالى عن إبليس: ﴿كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ﴾ [الكهف: 50]، والإنس: اسمُ جمعٍ، واحدُه: إنْسيٌّ، بياءِ النِّسبة إلى اسمِ جَمعِه.

والمقصودُ مِن هذا الإخبار هو الإنس، وإنَّما ذُكِرَ الجِنُّ إدماجًا"[2]، أو أنَّ المقصود بـ ﴿ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ﴾ هنا: مؤمنوهُم، أي: "سعداءُ الجنسَيْنِ"[3].

بلاغَةُ الإدماج في ذِكْرِ ﴿ٱلۡجِنَّ﴾:

الـجـنُّ غـير خـارجـين عـن الـعـبـوديَّـة لله تعالى

أدْمَج النَّظمُ الكريم ذِكرَ ﴿ٱلۡجِنَّ﴾ في الحُكم بِقَصْر علَّة خلقِ الجِنِّ والإنس على العبادة؛ تنبيهًا على الإيحاء بلطيفة مهمَّة في هذا السّياق؛ أشار إليها ابن عاشور بقوله: "وما ذَكر اللّه تعالى الجنَّ هنا إلّا لِتنبيه المشركين بأنَّ الجنَّ غير خارجين عن العبوديَّة للّه تعالى، وقد حكى اللّه عن الجنِّ في سورة الجنِّ قولَ قائلهم: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا ۝٤﴾ [الجن: 4]"[4].

(1) الفيروزابادي، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز: 2/ 566.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 25.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: 8/ 144.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 28.

نكتة تقديم ﴿ٱلۡجِنَّ﴾ على (الإنس):

الجنُّ عبادٌ لله تعالى كما أنَّ الإنسَ كذلك

في تقديم ﴿ٱلۡجِنَّ﴾ على (الإنس) هنا مراعاةٌ للأقدم والأسبَقِ خَلْقًا وتكليفًا بالعبادة؛ لأنَّ الحديثَ هُنا عن أصل الخَلق والغرضِ منه يوم كان، فحادَ الجنَّ أوَّلًا، ثُمَّ حاد الإنْسَ ثانيًا، فأفاد التَّقديمُ هاتين النُّكتَتَيْنِ جميعًا.

وفي تقديمِ الجِنِّ هنا في مقامِ ذِكْرِ العبوديَّة للّه تعالى "اهتمامٌ بِهَذا الخَبَر الغريبِ عند المُشْرِكين الَّذين كانوا يَعْبُدون الجنَّ؛ ليَعْلَموا أنَّ الجِنَّ عبادٌ للّه تعالى، فهو نظيرُ قولِه تَعالى: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۚ بَلۡ عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ ٢٦﴾ [الأنبياء: 26]"[1].

انـدراجُ الملائكَةِ في لفظ (الجنِّ) بمعناهُ العامِّ

ثُمَّ إنَّ لفظَ الجنِّ بمعناهُ العامِّ "يتناول الملائكةَ؛ لأنَّ الجنَّ أصله من الاستتار، وهُم مستترون عن الخلق، وعلى هذا فتَقْديمُ الجنِّ؛ لدخول الملائكة فيهم، وكونهم أكثرَ عبادة وأخلصَها"[2].

بلاغةُ الطِّباق بين ﴿ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ﴾:

الجـنُّ ليسوا بمنزلةٍ أن يَتَعَوَّذ بهم الإنس، فالجميعُ عبيدٌ لله تعالى

بينَ ﴿ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ﴾ طباقٌ بديعٌ، يُثير الاهتمامَ، ويُحَفِّزُ النَّفس نحوَ معرفةِ الحُكم الجامع لهما مع اختلاف طبيعَتَيْهما، فإذا وصَلَ القارِئُ إلى المُسْتَثْنى في قولِه تَعالى: ﴿إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾؛ تمكَّن حُكْم عبوديَّتهما معًا للّه تعالى في نفس المُتَلَقّي، وأيقن النّاسُ وبخاصَّة الكفّار أنَّ الجنَّ ليسوا بمنزلةٍ أن يَتَعَوَّذ بهم الإنسُ؛ فالجميعُ عبيدٌ للّه تَعالى.

توجيهُ المتشابه اللَّفظيّ في التَّقديم والتَّأخير بين ﴿ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ﴾:

التَّقديمُ والتَّأخير في الذِّكر الحكيم آيةٌ مِن آياتِ إعجازِه

يُقَدِّمُ القرآن الكريمُ ذِكْرَ (الإنس) على ذِكر (الجنِّ)؛ إذا كان للإنس مزيدُ اختصاصٍ في السّياق والمقام والغرض، وبالعكسِ، فإنَّهُ يُقَدِّم (الجنَّ) على (الإنس)؛ إذ كان للجنِّ مزيدُ اختصاص في

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 28.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 192.

ذلك، فمثلًا لمّا كان التَّحدّي في مجالِ البلاغة التَّعبيريَّة، والاقتدار الفكريِّ الدَّقيق؛ قدَّم ذِكر ﴿ٱلۡإِنسُ﴾ [الإسراء: 88]، وذلك في قوله تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا ٨٨﴾ [الإسراء: 88]؛ لأنَّ الإنسَ أعرفُ وأبصَرُ بمسالِكِ البلاغَةِ.

ولمّا كان التَّحدّي في مجال الانتقالِ والخروجِ مِن أقطار السَّماء والأرض؛ قدَّم ذِكر ﴿ٱلۡجِنِّ﴾ [الرحمن: 33]، وذلك في قوله تعالى: ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ فَٱنفُذُواْۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلۡطَٰنٖ ٣٣﴾ [الرحمن: 33]؛ لأنَّ الجنَّ أقدَرُ على الانتقالِ، وفيهم قدرةٌ على الطَّيرانِ.

وهاتان آيتا التَّحدي العامِّ للثَّقلين مجتمعَيْن في الذِّكر الحكيم.

والأوجه النَّظميَّة الإعجازيَّة والأغراض البلاغيَّة لتَقْديم الإنسِ والجنِّ بعضهما على بعضٍ في القرآن الكريم بَلَغت ثمانيةَ أوْجُهٍ، منها ما كان في مقام التَّحدّي بِمُعارضة القرآن الكريم أو النَّفاذ من أقطارِ السَّماوات والأرض، ومنها ما ورَدَ في مَقام الإخبار عن أمورٍ ماضيَةٍ وقَعت، ومنها ما جاءَ في مقامِ الإخبار عن أمورٍ أخرويَّة لمّا تقعْ، إلى غير ذلك من أوجُه وأغراضٍ.

ولو أنَّ آياتِ الذِّكر الحكيم اطَّردت على وتيرةٍ واحدة في تقديم الإنس أو تقديم الجنِّ؛ لَما اتَّضح وجْهُ الإعجاز في هذه الآيات من حيثُ التَّقديم والتَّأخير، أما وقد تَصرَّف القرآنُ الكريم فيهما تقديمًا وتأخيرًا؛ فقد لاح وجهُ الإعجاز فيها[1].

نكتةُ اختصاصِ ﴿ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ﴾ بالتَّكليف بالعبادةِ:

خُصَّ ﴿ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ﴾ من بين سائرِ الخَلْقِ "بالذِّكر؛ إشارةً إلى أنَّهما هما المخلوقان اللَّذان لهما إرادة عامِلة، وهما بهذه الإرادة يَعملان، فيُؤمنان أو يكفران، ويُطيعان أو يَعصيان، ومن هنا وقع عليهما التَّكليف، وحُقَّ عليهما الحسابُ والجزاء بمقتضى ما يعملان مِن خير أو شرٍّ.

(1) أحمد محمد سعيد، مِن وُجوهِ الإعجازِ النّظمِيّ في آياتِ الإنسِ والجِنّ: التّقدِيم والتّأخِير، بحثٌ منشور في مجلة القبس بكلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين بدسوق - العدد الرابع، 2002م.

وقد تكون هناك مخلوقاتٌ أخرى لها إرادةٌ، وعليها تكليف وحساب وجزاء، ولكنَّ الَّذي يقَعُ في محيط الإدراك الإنسانيِّ هو ما يَعلمه الإنسان مِن نفسه، وما بَلَغَه من رسالات الرُّسُل، كما كان عِلمه بالجنِّ، وأنَّهم مكلَّفون، ومنهم المؤمنون، ومنهم القاسطون، كما أخْبَر بذلك رُسُل الله تعالى"[1].

وقـــع الأمـــرُ بالعبادة للجنِّ والإنـــــــس؛ لاختصاصهما بالإرادةِ العاملة

ولم يُذكر الملائكة ﷺ؛ "لاستغنائهم عن التَّذكير والموعظة"[2]، فهُم عبادٌ مُكْرَمون، لا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون، فالأمر فيهم كان مسلَّمًا به بين القوم، فلم يَذْكُرْهُم، وذَكَرَ المُتنازع فيه؛ إذ إنَّ عُبّاد الأصنام كانوا يقولون: إنَّ الله تعالى عظيمُ الشَّأن، خَلَقَ الملائكة، وجعلهم مُقَرَّبين، فهُم يعبدون الله، وخَلَقَهُم لعبادته، ونحن لِنُزول درجَتِنا لا نصلح لعبادةِ الله، فنعبد الملائكة، وهم يعبدون الله، فقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾، ولم يذكُر الملائكة كذلك؛ لأنَّ الجِنَّ - بالمعنى العامِّ - يتناول الملائكة؛ إذ أصلُ مادَّةِ الجنِّ تدلُّ على الاستتار، والملائكةُ مستترون عن الخلق[3].

بلاغةُ الاستثناء المفرَّغ في الآية:

﴿إِلَّا﴾ في قوله تعالى: ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ استثنائيَّة، وفي اصطفاء أسلوبِ النَّفي والاستثناء لِقَصْر غاية خلق الجنِّ والإنس على العبادة تهويلٌ لهذا الحكم، وتنبيهٌ على خطره، وتأكيدٌ له؛ معالجةً لأحوال المُهْمِلين في العبادةِ حتّى مِن المسلمين.

أمـــرُ الـعـبـادةِ وإخـلاصُـهـا لله تعالى أهمُّ مَهامِّ المكلَّفين

وقَصْرُ عِلَّةِ خَلْقِ الجنِّ والإنس على عبادتِه ﷻ قَصْرُ إفرادٍ؛ لأنَّ قريشًا كانوا مشركين، يعبدون مع الله تعالى غيره، ويقولون: ﴿مَا

كمالُ غِنى الله تعالى عن عِبادِهِ

(1) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 14/ 538.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 14/ 21.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 192.

نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزمر: 3]، والمعنى: ما خلقتُ الجنَّ والإنس إلّا ليعبدوني منفردًا، دون إشراكِهم غيري معي في عبادتهم، ودون عبادتِهم غيري مطلقًا، يقول الآلوسيُّ: "والَّذي ينساق إلى الذِّهن: أنَّ الحصر إضافيٌّ، أي: خَلَقَهُم للعبادة دون ضِدِّها، أو دون طلبِ الرِّزق والإطعام؛ أخْذًا مِن تعقيب ذلك بقوله تعالى: ﴿مَآ أُرِيدُ مِنۡهُم مِّن رِّزۡقٖ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطۡعِمُونِ﴾.

فالقصر لبيان أنَّ شأنه تعالى مع عباده ليس كشأن السّادة مع عَبيدِهم؛ لأنَّهم إنَّما يَملِكونَهم؛ ليستعينوا بهم في تحصيل معايِشِهم وأرزاقهم، ومالكُ مُلّاكِ العَبيد نَفى أن يكون مُلْكُهُ إيّاهم لذلك، فكأنَّه قال سبحانه: ما أريد أن أستعين بهم، كما يستعين مُلّاكُ العبيدِ بعبيدِهم؛ فليَشْتَغِلوا بما خُلِقوا له من عبادتي"[1].

معنى اللّام في قوله: ﴿لِيَعۡبُدُونِ﴾، ووجهُ حَمله على الاستعارَة:

(اللّام) في قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾ لامُ التَّعليلِ، وهو تعليلُ حكمةٍ، والمعنى: أنَّ الحكمةَ الَّتي مِن أجلها خلقَ اللّه تعالى الجنَّ والإنسَ هو عبادَتُهم اللّه تعالى، فمنهم مَن أذعنَ، واستجابَ، ومِنهم مَن حادَ عَن ذلكَ، فاللّامُ يُرادُ بها التَّعليل الشَّرعيُّ، أي: لأجل أن يعبدوني؛ إذ آمُرُهم، فيمتثلون أمري، وليست اللّام هنا تعليلًا قدريًّا؛ لأنَّه لو كان تعليلًا قدريًّا؛ لَلَزِمَ أن يعبُدَهُ جميع الجنِّ والإنس، لكنَّ اللّام هنا؛ لبيان الحكمةِ الشَّرعية في خلق الجنِّ والإنسِ"[2].

ركَّب الله تعالى في الثَّقلين عقولًا، وخَلَق لهم حواسَّ لو خُلّيَت ونفسَها عَرَفَت صانعَها، وانقادت له

أو المعنى: "أنَّه سبحانه ركَّب فيهم عقولًا، وخَلَق لهم حواسَّ ظاهرةً وباطنة، لو خُلّيَت ونفسَها؛ عَرَفَت صانعَها، وانقادت له، كما

(1) الآلوسي، روح المعاني: 14/ 22.
(2) ابن عثيمين، تفسير القرآن الكريم، من الحجرات إلى الحديد، ص: 166.

في الحديث: «كُلُّ مَوْلودٍ يولَدُ عَلَى الفِطْرَةِ»[1]، فشُبِّه اقتضاءُ حالهم لِما ذُكِر بِجَعْلِها غايةً له، واستُعمِل فيه ما وُضع له، وهو اللّام بطريق الاستعارةِ التَّبعيَّة"[2].

دلالةُ التَّعبير بالفعل ﴿لِيَعۡبُدُونِ﴾ مضارعًا:

وجوبُ عِبادَةِ الله تعالى على الثَّقلين مُدَّةَ حياتِهم

عُبِّر بفعل العبادَةِ فعلًا مضارعًا في قول الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾؛ لإفادَةِ مَعْنى الدَّوامِ والاستمرارِ؛ إذ العبادُ مأمورونَ بعبادَةِ الله تعالى مُدَّة حياتِهم، كما قال الله سُبحانَهُ آمرًا نبيَّه ﷺ: ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ٩٩﴾ [الحجر: 99]، والخطاب له خطابٌ لأمَّته ﷺ.

بلاغَةُ المجازِ في لفظِ العبادة:

التَّنبيهُ إلى المقصودِ مِنَ الخلق ابتداءً

يرى الطَّيبيُّ أنَّ العبادةَ هنا مستعملَةٌ في الأمرِ بها؛ تعبيرًا بالمُسَبَّب عن سببه، أي: إنَّه مجازٌ مرسل، فقد قال: "﴿فَإِنَّ ٱلذِّكۡرَىٰ تَنفَعُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، وحجَّةٌ على المعاندين، فإنَّك ما بُعِثتَ إلّا للدَّعوة، وما خُلق الجنُّ والإنس إلّا لأن يُؤمروا بالعبادة؛ لأنَّهم مُكَلَّفون امتحانًا وابتلاءً.

قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة: 5]، أمّا الإرادة؛ فكما تعلَّقت بالعبادة؛ تعلَّقت بما يُخالفها، لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ذَرَأۡنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ﴾ [الأعراف: 179]، ويؤيِّد هذا التَّأويل ما روينا عن مُحْيي السُّنَّة عن عليٍّ رضي الله عنه: أنَّه قال: ﴿إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾، إلّا لآمرهم أن يعبدوني"[3].

والنُّكتةُ في التَّعبير بالمجازِ هنا: التَّنبيهُ إلى النَّتيجةِ ابتداءً.

---

(1) رواه البخاري في صحيحه، رقم: (1385)، ومسلم في صحيحه، رقم: (2658)، واللفظ للبخاريِّ.
(2) الشهاب الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي: 8/ 99.
(3) الطيبي، فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب: 15/ 37.

سرُّ إيثار التَّعبير بالعبادة دون الطّاعة والخدمة وغيرهما:

العبادةُ لله تعالى وحدَه، أمّا الطّاعة والخِدمة ونحوُهما؛ فتُطلقُ عليه وعلى غيرِه

وجهُ التَّعبير بالعبادة هنا دون الطّاعة، والخِدمة، والتَّعظيم؛ لأنَّ "في العبادة خصوصيَّةَ معنًى، ليس ذلك في الطّاعة والخدمة، وغير ذلك من الأفعال ... إذ لم يُجِز العبادة لغيره، وأجازَ الطّاعة والخدمة والتَّعظيم، وغير ذلك من الأفعال، كقوله تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ﴾ [النساء: 80]، فدلَّ أنَّ في العبادة معنًى ليس ذلك المعنى في غيره؛ لذلك وقعت الخصوصيَّة له؛ ولذلك خَصَّ نفسه بتسمية (الإله)، ولم يَجُز التَّسمية به لِغيره؛ إذ (الإله) عندهم معبود، فكلُّ معبودٍ عندهم يسمّونه: إلهًا، وذلك كما خَصَّ نفسه بتسمية: (الرَّحمن)، فلم يجعل ذلك لغيره، وجاز تسمية غيره: رحيمًا؛ لِما أنَّ في اسم الرَّحمن زيادةَ معنًى ليس في الرَّحيم، وكذا خَصَّ نفسه بتسميته: (خالقًا)، ولم يَجُز هذا الاسم لِغيره؛ لِما أنَّ في (الخالق) معنًى ليس ذلك المعنى في (الفاعل) وغيره، فكذلك هذا"[1].

غرضُ الخبر في الآية:

انحرافُ المُشْركين عن فِطْرَةِ الله تعالى

قول الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾ "خبرٌ مستعمَلٌ في التَّعريض بالمشركين الَّذين انحرفوا عن الفِطْرَة الَّتي خُلِقوا عليها، فخالفوا سُنَّتَها اتِّباعًا لِتضليل المُضِلّين"[2].

عِلَّةُ فَصْل جملة ﴿مَآ أُرِيدُ مِنۡهُم مِّن رِّزۡقٖ﴾ عمّا قبلها:

تقريرُ حِكْمَةِ خَلْقِ العِباد، ودفْعُ ما لا يَنْبَغي مِنَ المعاني

فُصِلت جملة: ﴿مَآ أُرِيدُ مِنۡهُم مِّن رِّزۡقٖ﴾ عن جملة: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾ لِكَمال اتِّصال مَعنَيَيهما؛ إذ إنَّها "تقريرٌ لمعنى ﴿إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾ بإبطال بعض العِلَلِ والغايات، الَّتي يَقصدها الصّانعون شيئًا يَصْنَعونه، أو يتَّخذونه، فإنَّ المعروف في العرف أنَّ مَن يتَّخذ شيئًا إنَّما يتَّخذه لنفع نفسه"[3].

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 9/ 395.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 25.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 28.

فالجملةُ الثّانية "بيانٌ لكون شأنه تعالى مع عبادِهِ متعاليًا عن أن يكون كشَأْنِ السّادة مع عبيدهم؛ إذ يَملكونهم؛ ليستعينوا بهم في تحصيل معايشهم وتهيئة أرزاقهم، أي: ما أُريد أن أصْرِفَهُم في تحصيل رِزقي ولا رزْقِهم، بل أتفضَّلُ عليهم برزقهم، وبما يُصْلِحُهم، ويعيِّشهم من عندي، فليَشتَغِلوا بما خُلِقوا له من عبادتي"[1].

معنى (ما) في جملتي: ﴿مَآ أُرِيدُ مِنۡهُم مِّن رِّزۡقٖ﴾، ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطۡعِمُونِ﴾:

(ما) في قوله: ﴿مَآ أُرِيدُ مِنۡهُم مِّن رِّزۡقٖ﴾، وقوله: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطۡعِمُونِ﴾ نافيةٌ إرادةَ الله تعالى من عباده الرِّزق والإطعام، وفي هذا النَّفي كنايةٌ عن أنَّ "ما يُريده ﷻ من عبادة العابدين ومن إيمان المؤمنين هو لِذات أنفُسِهم، وللخير الَّذي يُحَصِّلونه من العِبادة والإيمان، وللجزاء الحسَن الَّذي يَنالونَهُ بطاعَتِهم لله تعالى، وولائهم له، فليسَت هذه العبادة، وهذا الولاءُ ممّا ينتفع الله ﷻ بشيء منه: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٩٧﴾ [آل عمران: 97]، ﴿إِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمۡۖ وَلَا يَرۡضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلۡكُفۡرَۖ وَإِن تَشۡكُرُواْ يَرۡضَهُ لَكُمۡۗ﴾ [الزمر: 7][2].

لا تعود منافعُ عبادة العِباد إلّا على أنفُسِهم

دلالةُ التَّعبير بالفعل ﴿أُرِيدُ﴾ مضارعًا:

عُبِّر بفعلِ الإرادة مضارعًا في قوله: ﴿مَآ أُرِيدُ مِنۡهُم مِّن رِّزۡقٖ﴾، وقوله: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطۡعِمُونِ﴾؛ لإفادَةِ معنى الدَّوام والاستمرارِ، والمقصودُ دوامُ النَّفي واستمرارُهُ، لا نفيُ الاستمرارِ، وذلك يقتضي دوامَ استغنائِهِ تعالى عن عبادة عبادِهِ.

كمالُ غِنى الله تعالى عن المخلوقينَ

معنى (مِنْ) في القيد ﴿مِنۡهُم﴾:

(مِنْ) في ﴿مِنۡهُم﴾ من قوله تعالى: ﴿مَآ أُرِيدُ مِنۡهُم﴾ حرفٌ يُرادُ به ابتداءُ الغاية المكانيَّة، أي: إنَّه سبحانه لا يُريد منفعةً تنشَأُ منهم، أو تبدأ مِن قِبَلِهم؛ استغناءً بنفسه عن كلِّ ما سواه.

استغناءُ الله تعالى عن كلِّ ما سواه

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: 8/ 145.
(2) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 14/ 538.

معنى ﴿مِّن﴾ في قوله: ﴿مِّن رِّزْقٍ﴾:

لا يـرجِـعُ نَـفْـع عـبـادة الإنـس والجنِّ إلّا إليهم

﴿مِّن﴾ في قوله: ﴿مِّن رِّزْقٍ﴾ صِلَةٌ يُرادُ بها تأكيدُ العموم[1]؛ إذ تفيدُ التَّنصيص على عموم النَّفي، وتُقَرِّر نَفْيَ كلِّ قليل من الرِّزق، وكيف يُريد سبحانه منهم رِزقًا، وهو الغنيُّ، وهم الفقراء إليه، وهو الَّذي يَرزقهم؟ وفي إيرادِ ﴿مِّن﴾ إضافةً إلى عموم نفي إرادة الرِّزق منهم دلالةٌ على أنَّ نَفْع عبادتهم إنَّما يعود عليهم، ولا يعود عليه سبحانه منه شيءٌ.

دلالةُ التَّعبير بـ ﴿رِّزْقٍ﴾ منكَّرًا:

الـرِّزق أعـمُّ مـن الـطَّـعـام والشَّراب

الرِّزق: ما يُنْتَفَع به، سواءٌ أكان حلالًا أم حرامًا[2]، فمعنى قوله تعالى: ﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ﴾: "ما أريد منهم أن يَرْزُقوا أنفسَهم، ولا أن يُطْعِموا أحدًا من خلقي، إنَّما عليَّ رزقهم وإطعامهم، كقوله تعالى: ﴿*وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: 6]، ويحتمل: ما أريد منهم أن يرزقوا مَن لا يقومُ بأسباب الرِّزق، وأن يطعموهم؛ إذ ذلك عليَّ، وإنَّما أريد منهم العبادة.

أو أنَّه لم يَخْلُقْهُم لحاجة له في خَلْقِهم من الرِّزق والإطعام منهم؛ لِما أقام من دلالاتٍ تُبرِّئه عن الحوائج، وعن الرِّزق والطَّعام، وإنَّما خلقهم للأمر والنَّهي والامتحان، فرجعت منافعُ ذلك إليهم"[3].

وفي تنكير ﴿رِّزْقٍ﴾ دلالةٌ على ضآلته وقِلَّته، فلا يُريد تعالى منهم أدنى رِزْقٍ ولا أقلَّهُ، لا لأنفُسِهم ولا لغيرهم.

بلاغةُ الكناية والمجاز في قوله تعالى: ﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ﴾:

إذا قَـحَـطَ الـنّـاسُ؛ صار الطَّعام أشدَّ ما يُحتاجُ إليه

في قول الله تعالى: ﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ﴾: "كناية عن عدم الاحتياج إليهم؛ لأنَّ أشدَّ الحاجات في العُرف حاجةُ النّاس إلى

(1) الشوكاني، فتح القدير: 5/ 111.
(2) العراقي، الغيث الهامع شرح جمع الجوامع، ص: 758.
(3) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 9/ 396.

الطَّعام واللِّباس والسَّكن، وإنَّما تَحْصُل بالرِّزق، وهو المال؛ فلذلك ابتُدِئ به، ثُمَّ عُطِف عليه الإطعامُ، أي: إعطاء الطَّعام؛ لأنَّه أشدُّ ما يَحتاج إليه البشَرُ، وقد لا يَجده صاحبُ المال إذا قَحَطَ النّاسُ، فيحتاج إلى مَن يُسلفه الطَّعامَ، أو يُطعمه إيّاه، وفي هذا تعريضٌ بأهل الشِّرك؛ إذ يُهدون إلى الأصنام الأموالَ والطَّعام، تتلقّاه منهم سَدَنَةُ الأصنام"[1]، ونفيُ الحاجة أيضًا مجازٌ مرسلٌ علاقته المُسبَّبيَّة، من حيث ذِكْرُ المُسبَّب، وإرادَةُ السَّبب[2].

معنى (الواو) في ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ﴾:

(الواو) في قوله: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ﴾ عاطفةٌ الجملةَ بعدها على جملة: ﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ﴾؛ لما بينَهما من التَّوسُّط بين الكمالين؛ إذ الجملتان متَّحدتانِ في الخبريَّةِ، وبينَهما تناسبٌ في اللَّفْظِ والمعنى، فأمّا في اللَّفظ؛ فاتِّحادهما في الفعليَّةِ، واتِّفاقُهما في المسنَدِ والمسنَدِ إليه فيهما، وتصدُّر النَّفْيِ، وأمّا في المعنى؛ فلِما فيهما من بيانِ كمالِ غِنى اللّه تعالى عَن خَلْقه.

التَّرقّي في بيانِ كَمالِ غِنى الله سُبْحانَه

وفي هذا العطفِ ترقٍّ في الغِنى عن المخلوقين؛ لأنَّ الحاجة إلى الطَّعام خصوصًا أهمُّ من الحاجة إلى الرِّزق عمومًا، وبخاصَّة إذا قَحَط النّاس؛ لأنَّ الحياة تتوقَّف حينئذٍ على الطَّعام دون بقيَّة الرِّزق؛ مِن ملبَسٍ ومسكَنٍ ومركَبٍ وغيره، ففي نَفْيِ إرادَتِه وطلبه مِنَ المَخْلوقينَ دليلُ الصَّمديَّة، وكمالِ الغِنى.

نكتةُ إعادة الإرادة المنفيَّة في قوله: ﴿وَمَآ أُرِيدُ﴾:

كرَّر النَّظم الكريم نَفْي الإرادتين: إرادةِ الرِّزق وإرادة الطَّعام؛ "لأنَّ السَّيِّد قد يطلُب من العَبْدِ التَّكسُّبَ له - وهو طلَبُ الرِّزق - وقد لا يطلب؛ لأنَّه غنيٌّ، ولكن يطلب قضاء حوائجه من حِفْظِ المال

كمالُ استِغناء الله تعالى عَن خَلقِهِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 28.
(2) قباوة، المفصّل، ص: 1851.

وإحضار الطَّعام، فنفيُ الإرادة الأولى لا يستلزم نَفْيَ الإرادةِ الثّانية؛ فكرَّر النَّفيَ على معنى: لا أريد هذا، ولا أريد ذلك"[1].

نكتةُ التَّعبير بالمصدر المؤوَّل ﴿أَن يُطْعِمُونِ﴾ بعد الصَّريح ﴿رِّزْقٍ﴾:

خالَفَ النَّظمُ الكريم بين صياغَتَي الخَبَرَين: ﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ﴾، ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ﴾، وكان السّياق يقتضي أن يقابَل ﴿يُطْعِمُونِ﴾ بـ (يَرزُقون)، أو يقابَل ﴿رِّزْقٍ﴾ بـ (طعام)، فيُقابَل الفعلُ بالفعل، أو الاسمُ بالاسم.

الله تعالى غنيٌّ عن أن يُقدِّم عبادُه له رزقًا، أو يقوموا على خِدْمَتِه

لكنَّه آثر المصدر المؤوَّل مِن ﴿أَن﴾ والفعل ﴿يُطْعِمُونِ﴾؛ لأنَّ المقصود في الخبر الأوَّل نفيُ عينِ الرِّزق لا الفعل، والمقصود في الثّاني نفي الفعل نفسِه - وهو إعطاءُ الطَّعام - والمراد أنَّ الله تعالى غنيٌّ عن أن يُقدِّم عبادُه له رزقًا، أو يقوموا على خِدْمَتِه[2]، والمعنى: "لا أريد أن أُصَرِّفَكم في تحصيلِ رِزْقي ولا رِزْقِكُم، وأنا غنيٌّ عنكم وعن مرافقِكم، ومتفضِّلٌ عليكم بِرِزْقكم، وبما يُصلحكم، ويُعَيِّشُكم مِن عندي، فما هو إلّا أنا وحدي المَتينُ الشَّديدُ القوَّةِ"[3].

دلالةُ التَّعبير بالإطعام مضافًا إليه سبحانه:

الـرِّزق أعـمُّ مِن الأكـلِ؛ إذ هو كلُّ ما يُنتفع به

في التَّعبير بالإطعام في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ﴾ "تعريضٌ بأصنامهم، فإنَّهم كانوا يعملون معها ما يَنْفَعُها، ويُحْضِرون لها الأكل، فربَّما أكلتها الكلابُ، ثمَّ بالَت على الأصنام، ثُمَّ لا يَصُدُّهم ذلك، وهذه الآية دليلٌ على أنَّ الرِّزق أعمُّ مِنَ الأكل"[4].

ومعنى ﴿يُطْعِمُونِ﴾، أي: "أن يُطْعِموا عبادي، وهي إضافةُ تخصيصٍ"[5]، فـ "أسند الإطعام إلى نفسِه؛ لأنَّ الخلق عيالُ الله

(1) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 9/ 1110.
(2) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 9/ 1111.
(3) الزمخشري، الكشاف: 4/ 406.
(4) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 18/ 481.
(5) النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل: 3/ 381.

تعالى، فمَن أطعم عيالَ الله؛ فهو كَمَن أطعمه، وهذا كما ورد في قوله ﷺ: «يقول الله: عبدي استطعمتك، فلم تطعمني»[1]، أي: لم تطعم عبادي"[2]، أو "أن يكون الإطعام هنا بمعنى النَّفع على العموم، كما تقول: أعطيتُ فلانًا كذا وكذا طُعْمَةً، وأنت قد أعطيتَه عَرَضًا أو بَلدًا يُحييه، ونحو هذا، فكأنَّه قال: ولا أريد أن يَنفعوني، فذَكر جزءًا من المنافع، وجعله دالًّا على الجميع"[3].

نكتةُ تقديمِ نفي إرادةِ الرِّزق على نفي إرادةِ الإطعام:

الـطَّـعـامُ أهـمُّ لـلإنـسـان مِـن عُمومِ الأرزاقِ

تقديم نفي إرادة الرِّزق على نفي إرادة الإطعام، "من باب التَّرقّي في بيان غِناه ﷻ، فكأنَّه سبحانه يقول: لا أريد منهم رزقًا، ولا ما هو دون ذلك مِن تقديم الطَّعام"[4]، ويُحقِّق هذا التَّقديم فضيلةَ إفراد الخاصِّ بالذِّكرِ بعد العامِّ؛ تنبيهًا إلى أهمّيَّة ذلك الخاصِّ المُفرَد بالذِّكر من بين أنواع العامِّ المقدَّم؛ فالإطعامُ أمسُّ مطلَبٍ للحيِّ عمومًا والإنسانِ خصوصًا، فأُفرِد بالذِّكر تطمينًا للإنسان بضَمان إطعامِه، وأنَّ طعامَهُ عند الله تعالى لا عندَ خَلْقِه.

نكتةُ فصلِ قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ﴾ عمّا قبلهُ:

تعليلُ الأحكامِ بِـعَـظِـيـمِ الأوصافِ

فُصِلَ قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾، عن قوله تعالى: ﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ﴾؛ لتنزُّل قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ﴾ منزلة العلَّة من قوله تعالى: ﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ﴾؛ فَلِأنَّه سبحانه الرَّزّاق - كثيرُ الرِّزق منوَّعُه - لا يريد رزقًا مِن أحَدٍ من خلقِه ولا إطعامًا مِنهم.

دلالةُ التَّوكيد في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ﴾:

التَّوكيد بـ ﴿إِنَّ﴾ وضمير الفصل ﴿هُوَ﴾ في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ

(1) رواه مسلم في صحيحه، رقم: (2569).
(2) الشوكاني، فتح القدير: 5/ 111.
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: 5/ 183.
(4) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 9/ 1111.

جـلالُ الـحُكـم في نـفـسِـه من مـقـتـضـيـات التَّوكيد

﴿ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ﴾، يقتضيه حالُ المشركين، وشكُّهم في ذلك بموجب شِرْكِهم، كما يقتضيه جلالُ الحُكم في نفسه، فهو من المعاني الَّتي تُؤكَّد في نفسِها، وإن لم يوجَد مُنكِرٌ، كما قال ابنُ حجر: "وقَد يَكونُ التَّأكيدُ مِن جِهةِ أنَّ القَضيَّةَ في نَفْسِها مِمّا يُهْتَمُّ به، وإن لَم يَكُنْ هُناكَ مُنْكِرٌ"[1].

لطيفةُ إظهار الاسمِ الأحسَنِ في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ﴾:

لـلـتَّـصـريـح بالاسم الأحسَنِ هيبَةٌ في النُّفوس

آثَرَ النَّظمُ إظهارَ التَّعبير بالاسم الأحسَنِ، في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ﴾، "وكان الظّاهر أن يأتي السّياق الكريم: (إنّي أنا الرَّزّاق) ... لكن التُفِتَ إلى التَّصريح بالاسم الجليلِ؛ لبَعْثِ الهَيْبَة في النُّفوس، وأنَّه هو الرَّزّاق وحدَهُ دون سواه"[2]؛ لأنَّه في نظر بعضِ العُلماءِ "الاسمُ الأعظم الَّذي لم يتَّسم به غيرُه، ﴿ٱللَّهَ﴾ المحيط بجميع صفات الكمال المنزَّه عن شوائب النَّقص"[3].

دلالةُ التَّعبيرِ بضميرِ الفَصْلِ في جملةِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ﴾:

الله تعالى وحدَه المنفردُ بالإرزاق والقوَّة المطلقة والمتانة التّامَّةِ

التَّعبير بضميرِ الفَصْلِ في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ﴾ عنصرٌ قويٌّ من عناصر توكيد الحكم بانفراده ﷻ بالرَّزق الوفير، وأنَّه تعالى المنفرد بالقوَّة المطلقة والمتانة التّامَّة، ففي قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ﴾ أسلوبُ قصرٍ، بتعريفِ جُزأي الجملةِ ﴿ٱللَّهَ﴾ و﴿ٱلرَّزَّاقُ﴾، وضميرُ الفصل ﴿هُوَ﴾ يُرادُ به توكيدُ القصْرِ، والمعنى: "لا رزّاق، ولا ذا قوَّة، ولا متين إلّا اللّه، وهو قصر إضافيٌّ، أي: دون الأصنام الَّتي يَعْبُدونها، فالقَصْرُ قصرُ إفرادٍ بتنزيل المشركين في إشراكهم أصنامَهم باللّه تعالى منزلةَ مَن يدَّعي أنَّ الأصنام شركاء للّه تعالى في صفاته الَّتي منها: الإرزاق، والقوَّة، والشِّدَّة.

(1) ابن حجر، فتح الباري: 1/ 74.
(2) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 9/ 1111.
(3) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 18/ 482.

فأبطل سبحانه ذلك بهذا القصر، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ لَكُمۡ رِزۡقٗا فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ وَٱعۡبُدُوهُ﴾ [العنكبوت: 17]، وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ ٧٣﴾ [الحج: 73]"[1].

بلاغةُ الالتفاتِ في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ﴾:

كمالُ الله ﷻ مُطلقٌ

في إظهار الاسم الأحسنِ ﴿ٱللَّهَ﴾، في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ﴾ تنبيهٌ على أنَّه الله سبحانه الكامل الكمالَ المطلق[2]، فهو التفاتٌ من باب "إخراجِ الكلام على خلاف مقتضى الظّاهر؛ لأنَّ مُقْتَضاه: إنّي أنا الرَّزّاق، فعدل عن الإضمارِ إلى الاسمِ الظّاهر؛ لِتَكون هذه الجملةُ مستقلَّةً بالدَّلالة؛ لأنَّها سُيِّرَت مسيرَ الكلام الجامعِ والأمثال"[3]، والأمثالُ تستقلُّ تركيبيًّا عمّا قبلها في السّياق؛ ليتأتّى للمُتَمَثِّل بها أن يوردَها منفردةً.

معنى (أل) في ﴿ٱلرَّزَّاقُ﴾، ولطيفةُ صوغه على (فعّال):

كمالُ اتِّصاف اللهِ تعالى بالرّزق

(أل) في ﴿ٱلرَّزَّاقُ﴾ لتعريف العهد العلميِّ، أي: هو الرَّزّاقُ الَّذي عهِدْتُم خيراتِه عليكم تَترَى، الرَّزّاق أرزاقًا تَليق بِجلاله، الَّذي يَعْرِفُه البشر في حدود ما تُطيقه أفهامهم، وفي (أل) أيضًا معنى الكمالِ، فهو الكاملُ في اتِّصافه بالرّزق.

وصوغ ﴿ٱلرَّزَّاقُ﴾ على صيغةِ المبالغة (فعّال)؛ يتّسِق مع كثرة أرزاقه على عباده، والمبالغة في ذلك بـ "تَكرار الأرزاق لكلِّ حيٍّ، وفي كلِّ وقت"[4].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 29.
(2) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 14/ 539.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 29، بتصرف يسير.
(4) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 18/ 482.

معنى ﴿ذُو﴾ في قوله: ﴿ذُو ٱلْقُوَّةِ﴾، ودلالة تعريف ﴿ٱلْقُوَّةِ﴾:

قـوَّةُ الله تعالى كاملةٌ خَليَّةٌ من النَّقائص

﴿ذُو﴾ في قوله: ﴿ذُو ٱلْقُوَّةِ﴾ بمعنى (صاحب)، أي: إنَّه سبحانه صاحبُ "القوَّة الَّتي لا يَملِكُها الخلق"[1]، وأنَّه مانحٌ منها ما يشاء لمن يشاء من خَلقه، ويسلب ما منح متى شاء؛ لأنَّه صاحِبُها، وفي قوله تعالى: ﴿ذُو ٱلْقُوَّةِ﴾، أي: "ذو البطش الشَّديد فيما أهلَك الأُممَ الخالية"[2]، و"من خصائص ﴿ذُو﴾ أن تضاف إلى أمرٍ مُهِمٍّ، فعُلِم أنَّ القوَّة هنا قوَّةٌ خَليَّةٌ من النَّقائص"[3]، فتكون (أل) في ﴿ٱلْقُوَّةِ﴾ لإرادَةِ الكمالِ.

دلالةُ تعريف الوصف ﴿ٱلْمَتِينُ﴾:

اللـه تعـالى الكامِلُ في قوَّته، الَّذي لا يُعارَض، ولا يُدانى

﴿ٱلْمَتِينُ﴾: الشَّديدُ، وهو هنا وصفٌ لِـ ﴿ذُو ٱلْقُوَّةِ﴾، أي: الشَّديدُ القوَّةِ، وقد عُدَّ ﴿ٱلْمَتِينُ﴾ في أسمائه تعالى، وذلك يرجع إلى معاني القُدرة، و﴿ٱلْمَتِينُ﴾: كمالٌ في قوَّته، بحيث لا يُعارَض، ولا يُدانى[4].

و(أل) في ﴿ٱلْمَتِينُ﴾ لتعريفِ العَهْدِ العلميِّ، أي: ﴿ٱلْمَتِينُ﴾ الَّذي عهدتم متانَةَ قُدرته، وعَرَفْتُموها في حدودِ ما تُطيقُه أفْهامُكُم، و﴿ٱلْمَتِينُ﴾ متانةً تَليق بعَظَمَته.

بلاغةُ اللَّفِّ والنَّشر في ترتيب الأخبار:

التَّراكيب القرآنيَّة تَتَّسِم بالالتئام والوَثاقة

في ترتيب أخبار الآية الكريمة ﴿ٱلرَّزَّاقُ﴾، ﴿ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ لَفٌّ ونَشْرٌ مرتَّبٌ بديعٌ؛ منح التَّركيب التئامًا ووَثاقة؛ لأنَّ "كونَ الله تعالى ﴿هُوَ ٱلرَّزَّاقُ﴾ ناظرٌ إلى عدَم طلب الرِّزق؛ لأنَّ مَن يَطْلُبه يكون فقيرًا محتاجًا، وكونه ﴿ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ ناظرٌ إلى عدَم طلَبِ العمَلِ المراد مِن قوله سبحانه: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ﴾؛ لأنَّ مَن يطلبه يكون

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 9/ 397.
(2) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 9/ 397.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 29.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 29.

عاجزًا لا قوَّةَ له، فكأنَّه قيل: لا أريد منهم من رزق؛ لأنّي أنا الرَّزّاق، وما أريد منهم مِن عملٍ كالإطعام؛ لأنّي قويٌّ متينٌ"[1].

و"المتانةُ مع القوَّة كالعِزَّة مع القوَّة؛ إذ ذَكَرَ اللّه تعالى في مواضع ذِكر القوَّة والعِزَّة، فقال: ﴿قَوِيٌّ عَزِيزٌ ۝٢٥﴾ [الحديد: 25]، وقال: ﴿ٱلْقَوِيُّ ٱلْعَزِيزُ ۝٦٦﴾ [هود: 66]"[2].

(1) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 9/ 1111.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 196.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السابع والخمسون،
سورة الحُجُرَات من الآية 15 إلى سورة الطُّور الآية 24
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السابع والخمسون، سورة الحُجُرَات من الآية 15 إلى سورة الطُّور الآية 24
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 57 ، 802 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-650-27-0
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 57 : المجلد السابع والخمسون، سورة الحُجُرَات من الآية 15 إلى سورة الطُّور الآية 24.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-650-27-0
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-4331956 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"